الاتجاهات الإصلاحيَّة في اليهودية والمسيحية والإسلام

علاء الدِّين حسين رحَّال *

مقدمة

الاتجاهات الإصلاحية الحديثة في الإسلام إشكالية شغلت عقول الإسلاميين والغربيين على حد سواء، مع اختلاف البواعث ووجهات النظر، وعلاقة هذه الاتجاهات بمثيلاتها في المسيحية واليهودية قرباً وبعداً، تأثيراً وتأثراً. ووُجهت هذه الاتجاهات بردود فعل من المجتمعات، ووصلت إلى نتائج متقاربة في بعض القضايا، ومتباينة في البعض الآخر. و يُقدم هذا البحث مدارسة لتاريخ حركات الإصلاح في المسيحية واليهودية ومعرفة أسبابها وأهم نتائجها. والهدف من هذه مدارسة هاتين الديانتين السماويتين مقارنة ما حصل بهما بالاتجاهات الإصلاحية الحديثة في الإسلام.

* أستاذ مساعد بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك.

والمصطلح المتعارف عليه في الديانتين اليهودية والمسيحية لهذه الاتجاهات هو مصطلح الإصلاح، وقد استعمل بعض المفكرين المسلمين المصطلح نفسه، لكني آثرت استعمال الاتجاهات لأنها ليست بالضرورة إصلاحية بالمعنى الإيجابي.

استيعاب وتمثل فكر لفكر آخر

إن الدارس المتابع لتاريخ الفكر الديني يجد علامات شبه في تطور الفكر الديني في الأديان الثلاثة فقد وُجدت اتجاهات تغييرية "إصلاحية" لتغيير بعض الأحكام المتعارف عليها في الدين، هذا ما جعل العقاد يقول: "تاريخ المذاهب والفرق في الإسلام قريب الشبه بتاريخها في المسيحية وقريب الشبه قبل ذلك في الإسرائيلية، بل هو قريب الشبه بتاريخ كل عقيدة دينية انتقلت من دور **الإيمان** إلى دور الشرح والتفسير، أو دور التوفيق بين النصوص، وما يستلزمه العقل من معاني النصوص، لا فرق في هذا التطور بين دين ودين إلا من حيث السرعة أو تراخي الزمن."[١] هذا التشابه ليس بالضرورة أن يكون في الدين ذاته فقد يكون في الفكر الديني.

لكن يجب ألا نقع في الخطأ المنهجي الذي وقع فيه بعض المؤرخين وهو التسليم بتأثير الفكر السابق على اللاحق، ولا أقصد من هذا الدفاع عن الفكر الديني الإسلامي كونه الفكر المتأخر عن الفكرين اليهودي والمسيحي، بقدر التأكيد على أن هناك عوامل أخرى تؤثر في تطور الفكر الديني، لعل من أهمها قابلية الفكر الديني للتطور والنمو من ذاته.

كذلك ألا نقع في خطأ الخلط في المصطلحات عند دراسة الأديان والاتجاهات التغييرية فيها، فلا يمكن فهم الحركات المسيحية من خلال مصطلحات الحركات اليهودية وليس العكس، وكذلك بالنسبة للاتجاهات الإصلاحية الإسلامية الحديثة، ولعل مصطلحات: الخلاص، واليمين، واليسار، والرجعية، والتقدمية، والحداثة، والراديكالية، والتحررية، والانبعاث، وغيرها تجسّد هذه الأخطاء. والمصطلح الذي شاع كثيراً وهو الأصولية مثال واضح لجسامة خطأ نقل المصطلحات ومحاولة تركيبها على غير بيئتها.[٢]

---

[١] عباس محمود العقاد، **الإسلام والحضارة الإنسانية ومقالات أخرى**، تحرير الحساني حسن عبد الله (بيروت: المكتبة العصرية، ط١، د.ت) ص٥.

[٢] انظر ريتشارد هرير كمجيان، **الأصولية في العالم العربي** ((Fundamontalism in Arab Word) ، ترجمة وتعليق عبد الوارث سعيد (مصر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٩م) ص١١. فقراءة الكتاب تثبت هذه الأخطاء، إذ أن المؤلف يصطلح على كل الاتجاهات الإسلامية الحديثة حتى الخيرية منها بالأصولية ويتعامل معها من خلال عقليته الأوروبية الكاثوليكية ضد حركة المحتجين البروتستانت.

ذلك أن المصطلح يُجسّد مفاهيم الدائرة الحضارية التي أنتجتها، وهذه المفاهيم تكون عادة وليدة للسيرورة التاريخية والفكرية لتلك الدائرة بخصائصها العامة والمشتركة، فالمفاهيم ليست مطلقة ومتعالية ومفارقة، بل إفرازات للدائرة التي أنتجتها، تعكس خصوصية تلك الدائرة. وقد صاغ "هاملتون جب"[٣] قوانين ثلاثة عدّها شروطاً لتأثر ثقافة بثقافة أخرى، أو فكر ديني بفكر ديني آخر، وهي:

١. " تُسبق دائماً التأثيرات الثقافية بنشاط قائم فعلاً في حقول ذات صلة، وتَخلق هذه النشاطات القائمة عامل جذب لا يمكن بدونها قيام أي تمثل إبداعي للثقافة الأخرى"[٤]. أي اشتراط الأرضية المشتركة بين الفكرين أو الثقافتين.

٢. إن الأكثر نفعاً أن تأخذ لا أن تعطي، أي أن الفكر الذي يستوعب الأفكار الأخرى فكر حيوي فاعل، ولعل الفكر الديني الإسلامي مثال واضح لهذا، فعلى خلاف اليهودية ـ المتقوقعة في العبريين أو بني إسرائيل ـ استطاع الفكر الديني في الإسلام أن يأخذ من الفكر الفارسي والهندي واستطاع أن يهضم ويستوعب هذه الأفكار ويجعلها عامل بناء في الحضارة الإسلامية.[٥]

٣. "الثقافة الحية تتجاهل وترفض كل العناصر التي تتعارض مع قيمها الأساسية أو مواقفها العاطفية أو معاييرها الجمالية"[٦]. أي أن الثقافة المستوعِبة توصف بالحيوية إذا استطاعت أن

---

٣ انظر هافا لازاروس، "**الفكر الإسلامي والفكر اليهودي**"، مستلة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص١٨٠. وهي ترجمة لمقالة:

H. A. R. Gib, (The Influence of Islamic Culture on Medieval Europe), John Rylands Library Bulletin,vol. 38, 1955/56, p.82-98.، والتعبير هنا بالثقافة لا يختلف عن الفكر إذ أن الثقافة لم تنفصل عن الفكر الديني، وجب المستشرق المرموق يحاول خلال دراسته هذه إظهار تأثير الإسلام على حركة البعث الأوروبي.

٤ المصدر السابق، ص١٨٠.

٥ للمزيد راجع: عرفان عبد الحميد، "المرتكزات الأساسية التي حفظت للأمة وحدتها"، **مجلة التجديد**، ماليزيا، السنة الأولى، عدد ٢، ربيع الأول ١٤١٨هـ/ يوليه، ١٩٩٧م، ص٣٦-٤٢. فقد أبان تحت عنوان قدرة الإسلام الفطرية على الهضم والتمثل الثقافي، مدى إمكانية استيعاب الفكر الإسلامي للأخطار والثقافات الخارجية مما لفت انتباه الغرب لهذه الخاصية التي أسموها قدرة الفكر الإسلامي وقابليته الفائقة على الامتصاص الثقافي المتنوع، ولعل هذا العامل أوجد لدى الغربيين خوفاً وذعراً من الإسلام.

٦ انظر هافانا لازاروس، مصدر سابق، ص١٨٠.

تحصر تأثر الثقافات الأخرى ضمن حدود قيمها أي بنقلها من مجال تداولها الأصلي (Adaptation) إلى مجال تداول الثقافة المستعيرة (Adoption)، وبما لا يتعارض مع مبادئها.

حركات الإصلاح المسيحية

لتوضيح فكرة البواعث والأسباب التي كانت وراء حركات الإصلاح في المسيحية أعرضها من خلال جملة نقاط هي:

أ- أسباب ودواعي الحركات الإصلاحية

تعددت أسباب ودواعي حركات الإصلاح في المسيحية، وذُكرت عدة أسباب لها منها مثلاً الانحرافات الكثيرة التي وقعت فيها الكنيسة من احتكارها لتفسير النصوص المقدسة، أو منحها لصكوك الغفران[٧]، وثواب الآخرة، أو ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن الفضل في نشأة حركات الإصلاح يرجع إلى المسلمين وتعاليم الإسلام إلى حد كبير، فقد استفادت أوروبا من الحروب الصليبية ومن مراكز الأندلس العلمية، وقد عدّ بعض المؤرخين فتح القسطنطينية على يد المسلمين عام ١٤٥٣م الشرارة أو البداية لحركة النهضة الأوروبية.[٨]

نحسب أن العوامل السابقة وغيرها مجتمعة شكلت بواعث حركات الإصلاح إذ لا نميل إلى إرجاع أسباب انبعاث الحركات الإصلاحية في الفكر الديني إلى المؤثرات الخارجية دوماً، إذ أن التفاعل الداخلي أو الأسباب الداخلية عامل مهم لا يمكن إغفاله[٩]. من الضروري عند الحديث عن الحركات الإصلاحية المسيحية أن نفرّق بين الإصلاح (Reform) وبين (Reformation)، إذ المصطلح الأول يطلق على الإصلاحات التي كانت في العصور الوسطى وامتدت إلى القرن الرابع عشر، أما المصطلح الثاني ـ وهو موضوع البحث ـ فيطلق على الإصلاح اللوثري وما تبعه في القرن السادس عشر[١٠]، إذ أن

---

[٧] انظر توفيق الطويل، **قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام** (القاهرة: دار الزهراء، ط١، ١٩٩١م) ص٩٢.

[٨] انظر محمد العزب موسى، **حرية الفكر** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٧٩م) ص١٢٧. مع التأكيد على أن مصطلح الإصلاح لم يتضمن سواء نظرياً أو عملياً نزوعاً إلى الانفصال عن الكنيسة الأم القائمة.

[٩] انظر توفيق الطويل، مصدر سابق، ص٩٢. وعلى كل فإن المصرّين على تأثير العامل الخارجي يرجعون هذه الأفكار الإصلاحية إلى عوامل خارجية، بل ويذهبون إلى القول بأن حركات الإصلاح الأولى في الإسلام كانت بتأثيرات خارجية، جاءت من ترجمة كتب اليونان الفلسفية.

[١٠] انظر عرفان عبد الحميد، مصدر سابق، ص١٣٤-١٣٥.

الإصلاح الأول قد مارسه آلاف الرجال في العصور الوسطى منحصراً في مناقشة الكنيسة في فرض سلطانها على دنيا الناس، والدفاع عن اعتناق الأفكار الجديدة، إلا أن الكنيسة استطاعت أن تسكتهم[١١]، ولم يتحول الإصلاح إلى حركات منظمة. أما الإصلاح الحديث فقد نتجت عنه حركات منظمة أثّرت كثيراً على الكنيسة.

ب ـ حركة الإصلاح اللوثرية

سبق لوثر الألماني كل من "جان وايكليف John wy cliffe"[١٢] الذي انتقد النصرانية نقداً لاذعاً، "وايراسمس"[١٣] الذي كشف عن فساد الكنيسة، وألف كتاباً عنوانه "مدح الأحمق The Praise of Folly"، إلا أن (مارتن لوثر Martin lutter ١٤٨٣-١٥٤٦م) حاول الإصلاح أكثر من غيره ونسبت إليه الحركة الإصلاحية، أو ما عرف بالبروتستانتية (Protestanism) أي المحتجين وهو اللفظ الذي أطلق عليهم من قبل السلطة الكاثوليكية، بحكم احتجاجهم ومعارضتهم للكنيسة، وقد تيسرت للبروتستانتية في القرن السادس عشر الكثير من مصادر القوة التي كانت تنقص حركات الإصلاح السابقة واتخذت "أشكالاً عدة وشكلت نفسها طبقاً لكثير من المواقف المحسوسة المتنوعة في كثير من أجزاء الغرب، حتى أنه ليشق علينا أن نفسر نجاحها بسبب واحد ...إن الرأسمالية تدين بعض الدين للبروتستانتية ".[١٤]

وعلى كل فإن نقطة الخلاف الأساسية بين البروتستانتية والكنيسة الكاثوليكية هي الخلاف حول موازين الحق هل هي الكتاب المقدس أم اجتهادات البابا؟ أهي مسيحية يسوع الصادقة أم فتاوى البابوات؟ وقد أعلن لوثر على باب الكنيسة في ألمانيا بطلان الصكوك التي كانت تبيعها الكنيسة للناس، معلناً بهذا الحد من سلطة البابا والرجوع إلى سلطان الكتاب المقدس، مما جعل الكنيسة الكاثوليكية تصدر في

---

١١ انظر محمد العزب موسى، مصدر سابق، ص١٢٥.

١٢ مصلح فرنسي نشر في فرنسا وسويسرا مذهباً حمل اسمه وهو الأسس المسيحية.

١٣ ولد في هولندا وتوفي في سويسرا (١٤٦٦-١٥٢٦) وكان أكبر عالم في علوم الآباء "آباء الكنيسة" والدراسات الكلاسيكية بشمال إفريقيا.

١٤ كرين برنتن، **أفكار ورجال قصة الفكر الغربي**، ترجمة وتقديم محمود محمود (مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٥م) ص٣٨٣، والكتاب صدر باللغة الإنجليزية بعنوان: Ideas and Men, by Grane Brinton.

حقه اتهاماً رسمياً وتتهمه بالهرطقة، ثم تطور الأمر بالكنيسة فأصدرت حكم الحرمان (Excommunication) ضده، إلا أن لوثر أحرق القرار على ملأ من الناس، فأعلنت الكنيسة أنه طريد القانون، فتوارى لوثر مختبئاً مدة عامين، نقل فيها الإنجيل إلى الألمانية، ثم انتشرت دعوته انتشاراً سريعاً بين مختلف الطبقات.

تحولت هذه الدعوة فيما بعد إلى ثورة ضد السلطة القائمة، الثوار مثّلوا البروتستانتية، والكاثوليك مثلوا السلطة، وقد ساعدت عوامل كثيرة على تقوية الدعوة البروتستانتية، لعل من أهمها البيئة الداخلية للكنيسة القائمة حينذاك، إذ أن فاصلاً كبيراً كان يفصل اللاهوتيين من جهة والشعب من جهة أخرى، وفقدت الكنيسة القدرة على إشباع الحاجة الروحية للجماهير، فضلاً عن أن كبار رجال الدين كانوا يعدون وظائفهم مجرد مظهر اجتماعي، أضف إلى ذلك تأثيرات أتباع "النزعة الإنسانية Erasmus" الذين كانوا أكثر الدعاة نقداً للاهوت الاسكولاتي، وكانت حجتهم تستند إلى وجوب استعادة دين السيد المسيح في بساطته[١٥]. فضلاً عن العامل الرأسمالي المهم الذي أدّى دوراً لا يستهان به، إذ أن بعض الأمراء ناصروا الحركة البروتستانتية حباً في مصادرة أملاك الكنيسة. دخلت بعد ذلك الحركة البروتستانتية في مواجهات مع الكنيسة الكاثوليكية أدت إلى حروب طاحنة، واستطاع الإصلاحيون قيادة الجماهير وإثارة عواطفهم وإقناعهم بفساد الكنيسة وضرورة إصلاحها، واستخدموا شتى الوسائل والأساليب لنشر أفكارهم، وانتشر الفكر الإصلاحي في ألمانيا وفرنسا ليعم أوروبا كلها.[١٦]

---

١٥ انظر عرفان عبد الحميد، مصدر سابق، ص١٤٠.

١٦ استفاد لوثر من هذا القرار أكثر من أي شيء آخر، فقد تجمع حوله زخم من الجماهير لمناصرته، واستطاع لوثر بخطاباته التي مست مشاعر الناس أن يكسب أكبر عدد من الجماهير، واستطاعت حركة الإصلاح فيما بعد أن تنتزع الرأي النهائي من المجلس النيابي باستحالة تنفيذ حكم الحرمان الصادر بحق لوثر، وأصبح الانتشار الكبير للحركة الإصلاحية قضية القضايا، وكنتيجة لهذا الانتشار برزت قضية التفاهم ومحاولة التفاوض بين الكاثوليك والحركة الإصلاحية، وبالفعل تم عقد اجتماع في أوكسبرغ ١٥٣٠م لحل النزاع بين الطرفين، إلا أن المحاولات فشلت، تبع ذلك مواجهات دامية راح ضحيتها عشرات الآلاف، إذ ارتكب الإصلاحيون فيها ما ارتكبه رجال الكنيسة ضد المعارضين، فالبروتستانت الذين طالبوا بحق الإنسان في الحكم الفردي والاطلاع على الكتب المقدسة وتفسير نصوصها، استبدوا بخصومهم عندما استقرت أقدامهم وتمكن نفوذهم. انظر توفيق الطويل، مصدر سابق، ص٩٥-١٠٢.

وإذا نظرنا نظرة مقارنة نجد أن حصول الفرد على حريته الدينية، والتخلص من سلطة الكنيسة الدينية شكّل حجر الأساس لانبعاث الحركة الإصلاحية المسيحية، أما العمود الفقري لانبعاث حركات الإصلاح اليهودية فكانت محاولة الحصول على المواطنة، إلا أن الفارق الجوهري بين الحركتين أنه في اليهودية لم يَرْوِ لنا المؤرخون مذابح أو معارك بين اليهود المحافظين واليهود الإصلاحيين وأن ما حصل لليهود كان على يد الأغيار ـ حسب تعبيرهم ـ أما في المسيحية فإن كتب التاريخ قد نقلت عشرات الصفحات المفجعة من تاريخ الحركات الإصلاحية، ليس فقط بين الإصلاحيين والكاثوليك بل حتى بين الإصلاحيين أنفسهم.١٧

ج ـ دور ونصيب العقل في حركات الإصلاح

يُفترض أن يكون منطق العقل هو الباعث الذي انطلق منه الإصلاحيون في دعوتهم، إلا أن المتتبع لسير الحركات الإصلاحية يرى أنه على الرغم من انطلاقها من بواعث عقلية إلا أنها كانت قائمة على العواطف، وكان للمنطق الديني حظ وافر فيها، و لم تكن هذه الحركة في بداية أمرها دعوة إلى حرية التفكير فقد كانت منصبة على انتقاد تصرفات رجال الدين، والتاريخ يثبت أن البلاد التي سيطر فيها الإصلاحيون "البروتستانت" على الحكم لم تشهد تطوراً ونمواً بقدر ما شهدت تغيراً في السلطة، فمن البابوات إلى الملوك والسلاطين، ولعل "كلفن" استطاع أن يُجسد هذا المعنى من خلال الحكومة التي جمع فيها بين السلطتين الروحية والزمنية، وبما قام به من إجبار الشعب على اعتناق ما يدين به هو، وإعدام من يخالف مذهبه. وعليه فيمكن القول بأن حركة الإصلاح كانت "صدى لروح العصر و لم يكن لأهلها سبق عقلي على أهل زمانهم، والذي ساعد عليها هو اندحار قوة البابا في أوروبا ونمو الملكيات القوية التي عملت على فصل الكنائس القومية عن روما، فقد انتصر الإصلاح الديني في ألمانيا الشمالية، لأن الأمراء انتصروا له ليفيدوا من مصادرة أملاك الكنيسة".١٨

---

١٧ للمزيد انظر عرفان عبد الحميد، محاضرات عن المسيحية، تحت عنوان الانشقاقات في صفوف الإصلاحيين، إذ انشق عن الحركة الإصلاحية اللوثرية كل من ١. أوليرخ زونكلي السويسريان. ٢. فرقة الأنابابتيست (The Anabaptists)، ٣. الموحدون المنكرون لعقيدة التثليث (Antitrinitarians)، ٤. الكالفانية (Calvinism)، ص١٥-١٨.

١٨ توفيق الطويل، مصدر سابق، ص١٠٧.

ساعدهم أيضاً الفساد الذي كانت تعاني منه الكنيسة واهتمام البابوات بمصالحهم، فما قام به الإصلاحيون سواء لوثر أو غيره هو تقويض سلطة البابا وإحلال سلطة الإنجيل، لكن أي إنجيل، إنه الإنجيل كما فهمه لوثر أو كما عرفه كلفن[١٩]. يثبت هذا ما قام به لوثر الذي كان يحتج على مصادرة الآراء من إجبار الناس على طاعة أمرائهم في دينهم ودنياهم، بل وصل به الأمر إلى المجاهرة بإعدام منكري التعميد[٢٠]. فقد قام بما قام به الكاثوليك من قبله. ولذلك صرح "هـ. و. ويكمن" بفشل حركة الإصلاح في القضاء على التفرقة العنصرية واللغوية، وبالفشل كذلك في جمع مسائل الاجتماع والحضارة معللاً السبب بالأساس الذي قامت عليه حركة الإصلاح البروتستانتي وهو الرفض ورد الفعل، وليس المنطق العقلي المجرد، إلا أن هذا الفشل قد أدى إلى ظهور حركات إصلاحية جديدة تقدس العقل وتؤلهه.

د ـ حركة التنوير وتقديس العقل

ساهم التطرف الديني الكاثوليكي ومن ثم البروتستانتي في ردة الفعل تجاه الدين وظهور النزعة العقلية المجردة، فالحركة البروتستانتية لا تمثل حركة تنوير (Enlightenment)، فقد عادت البروتستانتية حرية النظر العقلي من جهة، وأخفق تطور العلم إخفاقاً معيباً في ألمانيا التي انتصرت فيها البروتستانتية من جهة ثانية[٢١]. بل على الرغم من الخلاف الكبير بين الطوائف المتعددة للبروتستانتية (انكليكانية، لوثرية، كالفنية) إلا أن العامل المشترك بينها كان محاربة الفكر الحر (Free Thinking) والتصدي لحركة التنوير، حتى سمى لوثر "العقل" بالشيطان في ذروة غيّه وتهتُّكه.[٢٢]

إلا أنه يجب عدم إغفال الدور الكبير للحركة الإصلاحية في التمهيد لحركة التنوير، فالحركة الإصلاحية أقرت حق الحكم الفردي أو الحرية الدينية ـ وإن كان مقتصراً على الإصلاحيين دون بقية الشعب ـ وهو الشرارة التي أرجعت للعقل الحكم على كل شيء بما فيها الدين. لعل هذه الظروف الصعبة هي التي "دفعت الأوروبيين

---

١٩ انظر المصدر السابق، ص١٠٥-١٠٨.

٢٠ انظر المصدر السابق، ص١١٥.

٢١ انظر المصدر السابق، ص١١٢.

٢٢ انظر عرفان عبد الحميد، مصدر سابق، ص١٩-٢٠.

في اشتياق عارم نحو الاحتكام للعقل وكأنهم ينتقمون لأنفسهم من عصور الظلام واحتقار العقل التي اكتووا بنيرانها طويلاً".٢٣

تأليه العقل هي الخطوة التي سبقت تشكّل حركة التنوير، وقد برزت في هذه الفترة أسماء كُثُر لعل من أبرزها (ديكارت ١٦٥٠م) الفرنسي النبيل الذي نشأ لا يصدق شيئاً إلا إذا رآه بعينيه أو لمسه بيديه، وهو الذي ادعى أن العلوم ليست علوماً بالمعنى الدقيق لأنها مبنية على مسلمات أساسية خاطئة، وأن العالم مليء بالجهل، وأن الإصلاح لا يتم إلا بالبناء الجديد المعتمد على العقل والتجربة، واستثنى "ديكارت" الدين والسياسة من طريقته الشكّية خوفاً أو مداراة لرجال الحكم، وكذلك "سبينوزا" الذي اعتنق أفكار "ديكارت" وتجاوزه بتطبيق مبدأ الشك حتى في الدين والسياسة٢٤، ليبرهن على أن حرية الفكر لا تعد خطراً على الإيمان الصحيح، ممهداً لظهور حملة "فولتير" ومن معه بتدشين الحركة العقلية، فقد قام (فولتير Voltaire ١٦٩٤-١٧٧٩م) بإصدار كتيب أسماه بـ"مقبرة التعصب الديني" قال في مطلعه إن من يعتنق دينه من غير تفكير كالثور الذي يستسلم للنير ويحمله راضياً.٢٥

ويعدُّ فولتير، وروسو، ومونتسكيو رواد عصر التنوير، فهم الذين مهدوا لقيام الثورة الفرنسية - في نهاية القرن الثامن عشر والتي جاء فيها إعلان حقوق الإنسان (Declaration of Rights,١٧٨٩م) - وهم الذين جاءوا بعد الرواد الذين أعلوا قيمة العقل. وفي هذا القرن بدأت أفكار وكتابات الحرية تتصاعد وتؤثر في تطور الحضارة الغربية، ساعد في هذا أيضاً الانقلاب العظيم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية بسبب استخدام المطابع الحديثة، فانتشر بذلك العلم ووصلت إلى الشعب المعلومات التي كان قد استأثر بها قبل ذلك العلماء والأغنياء. وبسبب البارود الذي أفسح المجال للوظائف العسكرية، فضلاً عن الرحلات البحرية، وحركة الكشوف الجغرافية،٢٦وغيرها من

---

٢٣ محمد العزب موسى، مصدر سابق، ص١٣٤، وهو تلخيص لما جاء في Vanloon, The Liberation of Mankiind، و Harold Nicolson, The Age of Reason، وكذلك ترجمة حسن حنفي لكتاب "رسالة في اللاهوت والسياسة" لسبينوزا.

٢٤ انظر المصدر السابق، ص١٣٤-١٤٤.

٢٥ انظر توفيق الطويل، مصدر سابق، ص١٣١، وللمزيد انظر محمد العزب موسى، مصدر سابق، ص١٤٥-١٥٥.

٢٦ انظر محمد تقي الأمين، مصدر سابق، ص٤٧.

الكشوفات العلمية في العلوم الطبيعية مما أدى إلى بروز إشكالية التوفيق بين العقائد الدينية المتوارثة وهذه النتائج العلمية القائمة على التجارب المحسوسة.٢٧

شهد القرن العشرين قيام الثورة الماركسية الإلحادية التي زعزعت العقيدة المسيحية وهيمنت على معظم أوروبا الشرقية لتنهي حكم الكنيسة الأرثوذكسية، ثم ما تبع ذلك من أزمات فكرية وخلقية حادة في أوروبا الشرقية والغربية وما أنتجته التطورات السريعة من تقدم لتكنولوجيا العصر من زعزعة لأركان العقائد الدينية، مما أدى إلى ردود فعل معاكسة، فقام عدد من اللاهوتيين يدعون إلى العودة للإنجيل، فقد نادى (كارل بارث Karl Barth ١٨٨٦-١٩٦٢م) بالعودة غير المشروطة إلى الإنجيل وعدم المساومة في التوفيق بين تعاليم الإنجيل ومعطيات العصر، قام بعد ذلك المؤتمر الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥م) بالمناداة بإصلاح المسيحية ومحاولة العودة إلى الأمور الجامعة للطوائف المسيحية.٢٨

حركات الإصلاح اليهودية

حركات الإصلاح اليهودية "الإصلاحيون Reformists"، أو ما أطلق عليهم اسم المجددين، تيارات فكرية ظهرت لإصلاح اليهودية، الإصلاح بمعنى الجمع بين تعاليم اليهودية الدينية والتطورات الحديثة، بإصلاح وتغيير ما يعارض هذه التطورات في اليهودية. وقد أرجع "أبشتاين"٢٩ ظهور هذه الحركات إلى حركة التنوير (Enlightenment) التي عمت أوروبا في القرن الثامن عشر.٣٠

---

٢٧ انظر عرفان عبد الحميد، مصدر سابق، ص٢٠. ومن هذه الاكتشافات العلمية نظرية دارون في أصل الأنواع وأصل الإنسان، والتي تصادمت مع العقيدة المسيحية المتوارثة في الخلق المستقل للإنسان على صورة الله.

٢٨ والتي تتجسد في: أ.إعادة التنقيب والكشف عن الأصول العقدية المشتركة ب. إعادة تقويم خصائص الحياة المسيحية الفردية والجماعية. ج.تقنين أشكال معاصرة للعبادات والمراسيم الطقوسية. المصدر السابق، ص٢١. مع ملاحظة أن هذا الرجوع _ للعقيدة المسيحية _ لم يشكل وعياً عند الجميع، فالنزعة العلمية المادية ما زالت طاغية ومسيطرة على المجتمع الغربي.

٢٩ الحاخام أيسدور أبشتاين من يهود انجلترا أنهى دراسته الأولية في الكلية اليهودية بلندن وحصل على بكالوريوس آداب من جامعة لندن في الساميات، والدكتوراه في الآداب منها أيضاً، عرف بمؤلفاته الغزيرة، أشرف على طبع وتحقيق التلمود البابلي في ست وثلاثين جزءاً باللغة الإنجليزية. عرفان عبد الحميد فتاح، **اليهودية عرض تاريخي والحركات الحديثة في اليهودية** (الأردن، دار البيارق، ودار عمار، ط١، ١٩٩٧م) ص١٤٧.

٣٠ انظر عرفان عبد الحميد، مرجع سابق، ص١٤٩، وهي ترجمة لفصل من كتاب "اليهودية عرض تاريخي" لمؤلفه الحاخام أيسدور أبشتاين، وما سأقوم به هو تلخيص لما جاء في الترجمة مع بعض التصرف في الترتيب والإضافة.

وقد ذهب البعض[٣١] إلى أن السبب الرئيس لظهور حركات الإصلاح يعود إلى الخلافات والبدع والخوارق والمعجزات التي تكرست عند المتصوفين اليهود الحاسيديم "التقاة" أو ما أطلق عليهم باليهود التقليديين، فقد أوصلوا اليهودية إلى أقصى درجات الدروشة والدجل الذي يلازم انحطاط الفكر الديني، فضلاً عن الانبعاث العلمي والثقافي الذي ساد أوروبا وأبرَزَ نظريات الحرية الفردية وحقوق الإنسان مما أتاح لبعض اليهود التعرف على هذه العلوم والمعارف لتتشكل بهذا بذور حركة الوعي الفكري اليهودي أو ما أطلق عليها "الهسكالاه" أي التفهم واليقظة والنهضة، وانبعثت حركة الإصلاحيين من داخل الهسكالاه على يد (موسى مندلسوهن Moses Menddssohn١٧٢٩ - ١٧٨٦م)، وقد قام مندلسوهن بالجهد الأكبر في نشر مبادئ فلسفة التنوير في صفوف اليهود، والتي تتلخص في الآتي:

١. إعادة صياغة العقيدة اليهودية بما يتناسب مع العقل أي رفض ما لا يقرّ به العقل، فالعقيدة ليست منظومة عقائدية مغلقة على ذاتها وموصٍ بها الرب، بل هي قواعد شرعية عامة لتنظيم السلوك.[٣٢]

٢. أن اليهود يجب أن يندمجوا في إنسانية العصر وأن يخرجوا من قوقعة العنصرية التي حبسوا أنفسهم فيها طيلة قرون طويلة. وتعدّ ترجمة مندلسوهن للأسفار الخمسة "البنتاتوخ" إلى الألمانية، ودعوة اليهود الألمان لاستبدال لغتهم الخليط من العبرية والألمانية (Yaddish) بلغة الألمان القومية خطوة كبرى في إخراج اليهود من قوقعتهم.

٣. الخروج من الدراسات التقليدية المقتصرة على التلمود، إلى الدراسات الحديثة بغرض الاندماج في ثقافة العصر، ولعل افتتاح مدرسة يهودية حرة (Frai Schule) في برلين جمعت بين العلوم الدينية والعصرية باللغة الألمانية حقق هذا الهدف والهدف الذي سبقه.

٤. أن المساواة في الحقوق المدنية بين اليهود وغيرهم ــ أي التحرر من القيود Imancipation ـ غير ممكنة إلا إذا عدَّ اليهود أنفسهم مواطنين في البلاد التي يعيشون فيها.

---

٣١ حسن ظاظا، **الفكر الديني اليهودي أطواره ومناهجه** (دمشق، دار القلم، ط٢، ١٩٨٧م) ص٢٦٤-٢٦٩.

٣٢ مع ملاحظة الفرق بين العقل الذي آمن به مندلسوهن وهو هنا فوق الدين "الوحي" والعقل الذي آمن به موسى بن ميمون (١١٣٤-١٢٠٤م) باعتباره رديفاً للدين.

إلا أن جهود مندلسوهن ومن معه من المصلحين من أجل تحرير اليهود وحصولهم على حقوقهم المدنية في المواطنة واجهت سلسلة من المصاعب أجّلت حصول اليهود على حقوق المواطنة إلى ما بعد وفاة مندلسوهن.

مع بداية القرن التاسع عشر كان اليهود قد اكتسبوا حقوقهم المدنية في أوروبا، إلا أنهم واجهوا مشكلة أشد من المواطنة، وهي كيفية التوفيق بين الدولة العلمانية التي يعيشون فيها وعقيدتهم اليهودية. حسم البعض هذه الإشكالية بالارتداد عن اليهودية، وآثر البعض الآخر التكيّف مع الظروف المستجدة والاندماج مع معطياتها فحافظوا على ولائهم لليهودية وتنكروا للخصائص القومية التي تميز اليهودية عن بقية الأديان، وتعددت مظاهر هذا التكيف مع معطيات ومفاهيم الدولة العلمانية التي كان من أبرزها رفض التسمية باليهودي، فاليهودية دين فقط وليست جنسية ومن الخطأ أن يقال "يهودي إنجليزي" بل الصحيح أن يقال: "إنجليزي متدين باليهودية"[٣٣]، وقد قوي هذا الاتجاه على يد (ديفيد فردلندر Friedlander ١٧٠٦-١٨٣٤م) أحد أكثر تلامذة مندلسوهن إخلاصاً لدعوته، والمؤسس لحركة الإصلاح الجديدة التي سارت على خطى من قبلها مستهدفة التوافق مع مطالب العصر والانصهار في المجتمع الغربي الحديث، وإذا كان مندلسوهن لم يغير بنفسه شيئاً من الشرائع والطقوس الدينية التقليدية فإن أتباعه من الإصلاحيين غيروا الشيء الكثير، وكان من أهم هذه التغييرات:

١. إنقاص الأدعية والصلوات إلى الحد الأدنى مع إباحة تلاوتها بلغات البلاد القومية حيث يعيش اليهود.

٢. ترك الترانيم الشعرية العبرية، والآرامية القديمة.

٣. إدخال الآلات الموسيقية وفرق الإنشاد الجماعي من الجنسين في العيد، والترنم بألحان حديثة، ثم إدخال الأرغن في المعبد اليهودي تقليداً للكنائس.

٤. إنكار الاعتقاد في أن يكون "الخلاص" معناه إقامة دولة في فلسطين، بل الخلاص يكون في الدنيا بالحصول على المساواة في الحقوق المدنية.

٥. صرف النظر عن إعادة بناء الهيكل في أورشليم "القدس" بالذات، وإطلاق اسم "الهيكل" على كل معبد من معابدهم.

---

٣٣ حسن ظاظا، مصدر سابق، ص٢٦٥.

٦. أقدم "صموئيل هولدهايم" من زعماء هيكل برلين عام ١٨٤٩م على استبدال السبت اليهودي ومراسيمه بالأحد المسيحي.

هذه التغييرات للأحكام "الشرعية" التي يمكن تلخيصها بإنكار شرعية التوراتين المدونة والشفوية معاً وقدسيتهما، فتحت المجال للاتجاهات الفردانية في التأويل والتفسير والتحريف كذلك، مما أدى إلى اختلاف كبير في صفوف الإصلاحيين أنفسهم فاضطروا لعقد مؤتمر جامع بوصف ذلك محاولة للوصول إلى قدر مشترك من الفهم ومن ثم الممارسة لهذه التعاليم، فكان مؤتمر برنشويج ثم فرانكفورت وثالث في برسلاو، ولعل مؤتمر فرانكفورت عام ١٨٤٥م يعد أخطرها من حيث دعوته لإلغاء اللغة العبرية. هذه الاختلافات هي التي أظهرت المدرسة الإصلاحية الجديدة على يد (زكريا فرانكيل Z. Frankel ١٨٠١-١١٨٧٠م)، التي عرفت باسم المدرسة الوضعية التاريخية (Positive Historical School).

أصدر الإصلاحيون كتاباً في الشريعة اليهودية نسبوه إلى أحد فقهاء القرن الرابع عشر المشهورين وهو "الربائي آثر بن يحيئيل" وتم نشره في عام ١٧٩٣م، وقد احتوى على كثير من الشرائع المتساهلة كتحليل أكل الأرز، والبقول في أيام الفصح، وإلغاء بعض أيام الصوم، وتحليل الانتقال بالعربات يوم السبت، وقد أثبت التحقيق أن مؤلف هذا الكتاب هو الحاخام الإصلاحي "شاؤول" وليس "آثر بن يحيئيل" مما أدى إلى انكماش كثير من اليهود عن حركة الإصلاح[٣٤]. ووجهت حركات الإصلاح اليهودية بمعارضة شديدة من المحافظين اليهود "الأرثدوكس" وكان أشد هؤلاء المحافظين صرامة (موسى صوفر M.. Sofer ١٧٦٣-١٨٦٣م)، الذي انقلب على كل دعوة إلى الحداثة والإصلاح في شؤون الحياة الدينية لليهود. كذلك قام (سمسون روفائيل هيرش S.R. Hirsch ١٨٠٨-١٨٨٨م) في ألمانيا بالمعارضة الشديدة للحركة الإصلاحية والوضعية التاريخية، وأسس مذهباً مغايراً لها عرف بالأرثدوكسية المحدثة (Neo-Orthodoxy).

إلا أن نشاط الحركة الإصلاحية استؤنف في الولايات المتحدة، حيث استطاعت الحركة الإصلاحية من خلال مؤتمرها العام في ١٨٨٥م أن تحدد المبادئ العامة وهي التأكيد على الرفض الكامل للتشريعات الموسوية، والربائية واستبدال السبت اليهودي بالأحد المسيحي، ثم إلغاء سنّة الاختتان بوصفه علامة دالة على الدخول في اليهودية في مؤتمر ١٨٩٢.

---

٣٤ انظر حسن ظاظا، مصدر سابق، ص٢٦٩.

نشأت بعد ذلك نزعة توفيقية بزعامة (سبا توموريـاس Sabatomorios ١٨٢٣-١٩٠١م)، تحولت فيما بعد إلى حركة منظمة عرفت بحركة المحافظين (Conservative Movement) لتكون فكراً وسطاً بين الأرثدوكسية التقليدية والحركة الإصلاحية، فحدد المحافظون مبادئهم العامة بالإيمان بالوحي السماوي إلى بني إسرائيل، متخذين موقفاً إيجابياً من الآمال القومية لليهود في العودة إلى أرض الميعاد وإقامة دولتهم المستقلة عليها، وأعطوا قيمة تاريخية حاسمة للغة العبرية، ولزوم أداء الصلوات والمراسيم الدينية بها، رافضين عقيدة البعث والقيامة وإن آمنوا بخلود النفس البشرية، ورفضوا الالتزام بقواعد معينة وثابتة في دائرتي العقيدة ومبادئ السلوك، وسمحوا بقدر واسع من الحريات فيما يتعلق بتفاصيل ومفردات السلوك العام، أدى هذا التسامح إلى ظهور حركة جديدة داخل الحركة ذاتها عرفت بـ (إعادة البناء أو التجديد The Reconstruction Movement).

ثم ظهر (ليوبولد زونز Leopold Zunz ١٧٩٤-١٨٨٦م) ليؤسس ما عرف بـ (علم اليهوديات The Science of Judaism) بوصفه ذلك ردة فعل لارتداد بعض اليهود عن يهوديتهم إلى المسيحية، وقد اهتم "ليوبولد" بدراسة تاريخ ما أنجزه اليهود من مآثر وتقاليد، وتوسعت دائرة هذا الاتجاه وانتشرت بسرعة كبرى، ثم جاء "كروخمال" فتصدى للأزمة التي تهددت اليهودية والتي جاءت وليدة حركة التنوير الأوروبية، وأظهر أن الصراع بين اليهودية التاريخية والنزعة العقلية للعصر هو في الحقيقة صراع ظاهري وليس أصيلاً أو حقيقياً، فقد عبر عن العقل المطلق بإله بني إسرائيل الذي عقد معه العهد والميثاق. ثم تبعه "لوزاتو" لإنهاء هذه الأزمة ببذل جهد علمي رصين ومكثف لإسقاط دعوى أنصار النزعة العقلية التنويرية، وقد عارض الروح اليونانية الأثينية (Atticism) بالتراث الروحي لبني إسرائيل "الإبراهيمية" مؤكداً ومقرراً الآراء التي قال بها "يهودا بن هاليفي الطليطلي". ثم أنشأت مجموعة من الكليات اللاهوتية بوصفه نتيجة للاهتمام بعلم اليهوديات، قامت هذه الكليات بدور بارز في تخريج القادة الروحيين الذين يجمعون بين المعرفة التاريخية عن اليهودية وبين أساس راسخ من الثقافة الجامعية. فضلاً عما قامت به الحركة الأرثذوكسية من خدمات كبيرة لحفظ التراث والتقاليد اليهودية، مع ملاحظة فشلها النسبي في إيقاف تيار الارتداد الديني القومي في صفوف اليهود نتيجة التعلق المفرط بالمظاهر والشكليات.

يؤكد "أبشتاين" أن ما حفظ للجاليات اليهودية في دول أوروبا وجودها وأبعد عنها خطر الزوال والهلاك التاريخي هو السيل المتدفق من المهاجرين من روسيا، وبولندا،

والمجر بفضل ما كانوا يتمتعون به من مستويات علمية رصينة في الدراسات الدينية، فقد استطاعوا أن يحفظوا للعقيدة الدينية نقاءها، وأن يبعثوا في هيكلها روحاً جديدة[٣٥]. وعليه فلم يتمكن "مندلسوهن" ولا غيره من التنويرين من تحطيم ما يصطلح اليهود عليه بالسور الأخلاقي العقدي (The Fence around the Law)، الذي ضربته الربائية حول اليهودية، بل تطور الأمر أكثر ليتحول حلم "موسى هيس" بالوطن القومي إلى عقيدة راسخة لدى أغلبية اليهود والتي عبروا عنها بتأسيس (حركة محبي صهيون Choveve Zion) التي كان هدفها الأول إنشاء وطن ذي سيادة وحدود يجمع اليهود.[٣٦]

الاتجاهات الإصلاحية الحديثة في الإسلام[٣٧]

كنا قبل الرجوع إلى المراجع الخاصة بهذا البحث ننوي الفصل بين الاتجاهات الحديثة وحركة التغريب، لكننا وجدنا الأمر في غاية الصعوبة لتداخل أفكارهما من جهة،

---

[٣٥] وقد قام (إسرائيل سلانتر I. Slanter ١٨١٠-١٨٨٣م) بإدخال دراسات الإرشاد الروحي إلى المعاهد الدينية مما أدى إلى ولادة حركة المرشدين الروحيين (Musar Movement)، بل أدى الأمر بـ(موسى هيس M. Hes ١٨١٢-١٨٧٥م) إلى الاعتقاد ومن ثم التصريح بأن الانبعاث القومي هو الطريق الأوحد الذي سيعيد للعبقرية الدينية عند اليهود قوتها من جديد.

[٣٦] ولعل هرتزل (١٨٢٠-١٩٠٤م) بجهوده وعون المجلترا نقل العواطف اليهودية إلى حركة منظمة ذات أهداف وسياسات واضحة كانت نتيجتها الحصول على وعد بلفور (١٩١٧م) بإقامة وطن لليهود في فلسطين، تبعه قرار الأمم المتحدة في ١٩٤٧م بإنهاء حكم الانتداب البريطاني وإقامة دولة مستقلة يهودية على أرض فلسطين.

[٣٧] المصادر المعتمدة في هذا المبحث:

-أنور الجندي، **المؤامرة على الإسلام** (القاهرة: دار الاعتصام، د.ت).

- أنور الجندي، **إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام** (القاهرة: دار الاعتصام، د.ت).

-أنور الجندي، **شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي** (١٩٧٨م).

-يوسف كمال، **العصريون معتزلة اليوم** (مصر: دار الوفاء للطباعة والنشر، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

- عدنان النحوي، **الصحوة الإسلامية إلى أين** (السعودية: دار النحوي للنشر، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

- محمد البهي، **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي** (مصر: مكتبة وهبة، ط١٢، ١٩٩١م).

- فهمي جدعان، **أسس التقدم عند مفكري الإسلام** (الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع،ط٣،١٩٨٨م).

- الندوة العالمية للشباب الإسلامي، **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة** (السعودية: مطبعة سفير، ط٢، ١٩٨٩م).

- صلاح الصاوي، **المحاورة الكبرى حول قضية تطبيق الشريعة** (إسلام آباد، مركز بحوث تطبيق الشريعة، د.ت).

- محمد عبده، **سلسلة الأعمال المجهولة**، تحقيق وتقديم علي شلش (لندن: رياض الريس، تصوير عن Great Britain ١٩٨٧م).

- Ernest Gellner, Islamic Pilimmas: Rformers, Nationalists and Industrialization (Germany Druckerei Hildebrard, 1985).

وللطريقة التي اتبعها أصحاب المراجع التي رجعنا إليها من جهة ثانية، وثالثاً لِتَسهُل المقارنة بينها وبين حركات الإصلاح اليهودية والمسيحية[٣٨]. سنعرض البحث من خلال القضايا الأساسية التي كانت محوراً للتغيير "الإصلاح"[٣٩] التي يمكن حصرها في الآتي:

أ ـ الإصلاح العقدي.[٤٠]

ب ـ العقل وعلاقته بالوحي "النقل".

ج ـ إصلاح النظام التشريعي الفقهي.

توطئة: يسبق هذه القضايا التعرض للبواعث والأسباب التي أدت إلى هذه الاتجاهات، أي التعرف على البداية الأولى التي كانت إرهاصاً لهذا التغيير، هل هي حملة نابليون الفرنسي على مصر سنة ١٧٨٩م؟ أم هي إصلاحات السلطان محمود الثاني؟ أم استقدام السلطان سليم الثالث المهندسين من السويد وفرنسا والمجر وانجلترا؟[٤١] أم إرساليات محمد علي والي مصر وقيامه ببناء جيش على النظام الأوروبي وبعثات الأزهريين إلى أوروبا؟ أم سقوط الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م وما تبع ذلك من انحسار قوة المسلمين؟ أم قدوم الاستعمار وما قام به من إثارة لعواطف المسلمين سلباً وإيجاباً؟ أم حالة الركود والتخلف التي سادت وضع الأمة الإسلامية والتطور الهائل لأوروبا في الجهة المقابلة؟

الذي نميل إليه أن حصر سر الانبعاث في عامل واحد لا يعطي بالتأكيد الصورة الحقيقية، لأن الأفكار والحضارات تتجاذبها عدة عوامل، واتجاهات التغيير في الإسلام لم تكن في القرن التاسع عشر التجربة الأولى فحسب، بل قد قامت على امتداد

---

٣٨ التغريب يعني خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه، ثم تحاكم الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي من خلالها بهدف سيادة الحضارة الغربية وتسييدها على حضارات الأمم. انظر الجندي: شبهات التغريب، مصدر سابق، ص١٣، والموسوعة الميسرة، مصدر سابق، ص١٤٥.

٣٩ لا أقصد بالإصلاح المعنى الظاهري فقط، بل المقصود هو التغيير من حالة لحالة أخرى هي الأصلح في نظر صاحبها.

٤٠ استخدم فهمي جدعان مصطلح التوحيد المحرر، مصدر سابق، ص١٩١.

٤١ انظر الموسوعة الميسرة، مصدر سابق، ص١٤٥. ولم تفرق الموسوعة بين الشخصيات ذات التوجهات الإصلاحية وبين المتغربين ذوي الآراء الشاذة، وعدّت آراء كل من: رفاعة الطهطاوي، ناصيف اليازجي، بطرس البستاني، جرجي زيدان، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا، قاسم أمين، طه حسين، منصور فهمي، زكي مبارك، إسماعيل مظهر... وغيرهم من التيار التغربي.

التاريخ الإسلامي وغالباً ما تشترك فيها العوامل الخارجية مع العوامل الداخلية، والأمر قبل هذه العوامل يعود إلى طبيعة الفكر الديني عموماً والفكر الديني الإسلامي خصوصاً وقابليته للتطور والنمو ذاتياً.

بالمقارنة مع الحركات الإصلاحية اليهودية والمسيحية، نجد أن اليهود يحصرون انبعاث حركة الإصلاح بعاملين مهمين هما:

أ- القوقعة الدينية والعزلة القومية التي كانوا يعيشون فيها والتي فصلتهم عن الشعوب، بوصفها محاولة للعيش مع "الشعوب" لا "بينها" كانت حركة الإصلاح.

ب ـ التطور المذهل في الحياة الغربية ومحاولة اللحاق بهذه المدنية.

أما المسيحيون فيتفقون على اعتبار الحالة السيئة التي وصلت إليها الكنيسة والحكم الثيوقراطي الكنسي في كونه السبب الرئيس وراء نشوء حركات الإصلاح، وتتباين آراؤهم بعد ذلك في تأثير الحضارة الإسلامية عليهم بين مثبت ومنكر. في الاتجاهات الإصلاحية الإسلامية وإن تباينت واختلفت الآراء يجمعها التقدم والنهضة التي حصلت للأوروبيين ومحاولة اللحاق بهم من جهة، وحالة الضعف والهوان التي أصابت المسلمين من جهة ثانية.

نجد أن العامل الخارجي وهو الانبهار بفكر وحضارة الآخرين، يشكّل عاملاً مشتركاً لانبعاث حركات التغيير. أما العامل الداخلي فهو في اليهودية الخطأ الناشئ عن التصور القومي للعقيدة اليهودية، واليهود سبب في هذا التصور الذي أجبر الآخرين على التعامل معهم بوصف ذلك عنصراً غير مرغوب فيه، مما عطّل حصولهم على حقوق المواطنة في معظم دول أوروبا إلى عهد قريب، وهذا لم يوجد لا في الواقع المسيحي ولا الإسلامي.

العامل الداخلي في المسيحية يتمثل في سلطة الكنيسة المطلقة على الحياة بفرعيها الديني والمدني، مما أثار حفيظة بعض العقلاء الذين احتجوا وثاروا على هذا الاحتكار الكنسي للسلطة، وهذا الذي لم يحصل في الإسلام بالشكل الذي حصل في المسيحية، وإن تجاوز بعض الحكام المسلمين واحتكروا السلطة، إلا أنهم لم يفلحوا في السيطرة الكاملة على السلطة الدينية لطبيعتها المختلفة عنها في المسيحية، إلا أن هذا الفارق الجوهري لم ينتبه له بعض كبار المستشرقين وأوقعهم ـ عن قصد أو عن غير قصد ـ في أخطاء كبرى عند مقايسة كل ما يحصل في اتجاهات التغيير الإسلامي بما حصل في تاريخ حركاتهم،

وباستخدام ذات المصطلحات النابعة أساساً من التجربة والبيئة الغربية. وكمثال لما أقول أنقل ما كتبه (أرنست جيلينرErnest Gellner) إذ يقول تحت عنوان حركة الإصلاح: "بصورة خاصة انطلقت حركة الإصلاح في مصر على يد محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م) لتعلن احتجاجها على الدولة الدينية متأثرة بالتفكير العقلي الغربي".٤٢

لعل ضعف الدولة الإسلامية بعد قوتها وازدهارها كان عاملاً داخلياً مهماً في نشوء اتجاهات التغيير التي نادت بإصلاح قضايا كثيرة من أهمها:

أ-الإصلاح العقدي

لا منازعة عند الإصلاحيين في اعتبار التوحيد أهم قضايا الإسلام، إلا أن طريقة تناول وفهم التوحيد أخذت بعداً إنسانياً اجتماعياً واقعياً عند الإصلاحيين، بردّ مفاهيم التوحيد إلى العهد الأول في الإسلام وفهمه على غرار فهم السلف الأول، أو بعبارة أدق الرجوع إلى جوهر الدين وحقيقته والبعد عن الشكليات الجدلية التي صاحبت التوحيد وعرفت فيما بعد بعلم الكلام٤٣، فقام الإصلاحيون بمحاولة إعادة الروح للتوحيد ونقله من دائرة العلم الجاف إلى الحياة العملية ذات الوظائف الكثيرة.

لهذا الغرض قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥هـ/١٧٠٣م-١٢٠٦هـ/١٧٩١م) برد الاعتبار إلى جوهر الدين والتأكيد على ضرورة الرجوع إلى الكتاب والسنة وعدم قبول أي أمر في العقيدة ما لم يستند إلى دليل، وتنقية مفهوم التوحيد بالرجوع إلى ما كان عليه المسلمون في الصدر الأول للإسلام، والقضاء على البدع والخرافات.٤٤

---

٤٢ Ernest Gellner, op cit, p.32. ونص ما يقوله:

Thii informist movement, especially striling for intellectuel western observers has been the" reformist movement founded in Egypt by Muhammad Abduh (ca 1849-1905), one of the "movements of internal enlightened protest against the state of religion.

٤٣ لمراجعة تعريف ومفهوم علم الكلام، انظر أبو حامد الغزالي، **المنقذ من الضلال** (مصر: ١٣٠٩هـ). سعد الدين التفتازاني، **شرح العقائد النسفية** (مصر: ١٣٤١هـ)، مع عدم إغفال الواقع الذي مرت به الأمة الإسلامية وأن ما حصل من ردود على الشبه التي أوردها أصحاب الملل والنحل المختلفة كان أمراً ضرورياً في وقته، وقد حفظ علم الكلام للعقيدة الإسلامية جوهرها وشكلها، وأبدع المسلمون في تصنيف مؤلفاتهم.

٤٤ الموسوعة الميسرة، مصدر سابق، ص٢٧٣-٢٧٦، وجدعان، مصدر سابق، ص١٨٩-١٩٥. وقد أُطلق على هذه الحركة اسم الوهابية نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب، وهو إطلاق من قبل غير المنتسبين إليها.

هذه الانطلاقة التي رفعت لواء نبذ التقليد العقدي قبل الفقهي، انتقلت صدياتها إلى العالم الإسلامي فكانت المهدية والسنوسية والأفغاني ومن بعده محمد عبده.

وكنتيجة لكون الإنسان نتاج بيئته ركز الأفغاني (١٢٤٥هـ/١٨٣٨م-١٣١٤هـ/١٨٩٧م) على إظهار أهمية الدين ودور التوحيد في بناء النظام الاجتماعي وفي التقدم المدني، وألف كتابه في الرد على الدهريين المنكريين للألوهية والبعث، وأظهر ما سيقوم به هذا الاعتقاد من تقويض أركان المدنية، ونسف بناء الإنسانية، وعلى الرغم من عدم تعميق الأفغاني للمعنى الاجتماعي في العقيدة[٤٥] لانشغاله بالعمل السياسي.

إلا أن الفضل يرجع إليه في تنبيه تلميذه محمد عبده (١٢٦٦هـ/١٨٤٩م-١٣٢٣هـ/١٩٠٥م) الذي أعلن أهداف تفكيره في "تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفها إلى ينابيعها الأولى".[٤٦] تناول محمد عبده موضوعين رئيسيين في الاعتقاد هما: تحرير المسلم من عقيدة الجبر مع الإبقاء على عقيدة القدر، وإفهام المسلم بأن عقل الإنسان نعمة من الله، يجب أن يتلاءم ويسير جنباً إلى جنب مع دين الله". وبهذا أراد عبده أن يخلص المسلم من سلبية عقيدة الجبر وما ستفضي إليه من ضعف وتكاسل وعدم إرادة، وتخليص التوحيد مما علق به من مصطلحات أفقدته قيمته الحياتية، ويعد كتاب "رسالة التوحيد" أشهر مؤلف لمحمد عبده وقيمة الكتاب تبرز في إظهار "أن مبدأ التوحيد ذو فعاليات مختلفة بعضها نفسي وبعضها اجتماعي وبعضها أخلاقي وبعضها تمدني".[٤٧] وعليه فيمكن اختصار ما قام به محمد عبده بأنه شكّل ثورة حقيقية عملية على الجمود والتقليد العقدي والفقهي وأعاد الروح إلى جسم الإسلام.[٤٨]

بدراسة هذه الإصلاحات نجد الآتي:

- لم يتعرض محمد بن عبد الوهاب لتهمة الاتصال بالغرب أو التأثر بالإصلاح البروتستانتي، بل اعتُبرت الجذور الفكرية لدعوة محمد بن عبد الوهاب موصولة

---

[٤٥] انظر جدعان، مصدر سابق، ص١٧٢ وما بعدها.

[٤٦] البهي، مصدر سابق، ص٩٧.

[٤٧] جدعان، مصدر سابق، ص٢٠٦.

[٤٨] انظر المصدر السابق، ص٢١٤.

بشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) ومن قبله الإمام الممتحن أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ).

- على الرغم من ادعاء الأفغاني ومن بعده محمد عبده الانتساب إلى الدعوة السلفية إلا أن كلاهما لم يسلما من تهمة التأثر بالغرب وأفكاره بل تجاوز البعض بنسبة الاثنين للعمالة لصالح القوى المعادية للإسلام، ولسنا بصدد مناقشة هذه الشبهة بقدر الإشارة إلى أن الارتباط بالغرب ولو عن طريق الصداقة الشخصية[٤٩] كان وما يزال تهمة في حق الإصلاحي، كذلك الحياة في الغرب ومحاولة نقل الأفكار الغربية إلى البلاد الإسلامية هي تهمة ثانية.[٥٠]

وأياً كان هذا التأثر، فإن القصد من الإصلاح العقدي كان محاولة للعودة لجوهر الدين ومنابعه الأصلية وتنقيته من الخرافات والبدع التي لحقت به، وهو في المقابل يشبه حركة الإصلاح اليهودي في محاولتها إرجاع اليهودية إلى أصولها مع الفارق في التطبيقات، أما في المسيحية فالأمر مختلف إذ أن إشكالية الحركة البروتستانتية تتمحور في إنكار أن يكون البابا تجسيداً للسيد المسيح عليه السلام، فالبروتستانتية كانت محاولة لتحرير الدين المسيحي من البابوية.

ب - العقل وعلاقته بالوحي (النقل)

إشكالية العقل وعلاقته بالوحي إشكالية قديمة حديثة من أبرز قضايا الفكر البشري وهي تشمل الفكر الديني السماوي وغير السماوي، في الأول تنحصر العلاقة بين العقل والنصوص السماوية (التوراة، الإنجيل، القرآن والسنة) وفي الثاني تنحصر في العقل وأقوال مؤسس الديانة، ولا يعنينا في هذا البحث تأصيل هذه القضية والبحث عن جذورها، بقدر الحديث عن قيمتها عند الإصلاحيين ومدى تأثرهم بالعقلانية الأوروبية الحديثة.

---

٤٩ المعروف أن الأفغاني كان على صلة بالمستر بلنت البريطاني، وعبده كان على صلة وثيقة باللورد كرومر والمستر بلنت المستشرق البريطاني، وللمزيد يمكن مراجعة سلسلة الأعمال المجهولة، مصدر سابق، ص٥٦-٦٦، لقراءة الرسائل التي أرسلها عبده لويلفرد بلنت.

٥٠ وقد ذهب فهمي جدعان إلى القول بأن "جمال الدين الأفغاني كان معجباً بلا شك بحركة الإصلاح البروتستانتي التي مثلت بالدرجة الأولى ثورة على السلطة البابوية والإكليركية" جدعان، مصدر سابق، ص٢٠٢، ١٧٠-١٧٢.

يقول محمد عبده أشهر من نسبت إليه العقلانية في بيان لصلة العقل بالوحي: "فالوحي بالرسالة الإلهية أثر من آثار الله، والعقل الإنساني أثر أيضاً من آثار الله في الوجود... وآثار الله يجب أن ينسجم بعضها مع بعض ولا يعارض بعضها بعضا".[٥١]

يعلق البهي على هذا بقوله: "فإن بدا أن هناك اختلافاً بين تطبيق رسالة الوحي واستخدام العقل كان منشأ هذا الاختلاف: إما تحريف في نص رسالة الوحي، أو سوء استخدام العقل"، ثم يقرن البهي بين محمد عبده وبين ما رآه ابن تيمية في القرن الثامن بل وما رآه قبله ابن رشد في القرن السادس من أن النص يجب أن يتفق مع العقل، مع تفريقه بين هدف ابن رشد وهو إزالة الخلاف بين الفكر الإغريقي والفكر الإسلامي أو التوفيق بينهما، وهدف ابن تيمية من إظهار عيب الفكر الإغريقي ونقضه. والكلام لم يتعرض للإشكالية إذ أن الجميع يسلمون بأن الإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في العقل، والتعويل عليها وحدها قدح في الوحي (النص)، والتوفيق في الجمع بينهما ضرورة إذ أن التعارض ظاهري مفتعل،[٥٢] وهذا عامل مشترك عند الجميع، لكن الإشكالية تكمن في أيهما يرجح في حالة التعارض العقل أم الوحي؟ وهذا محور الخلاف بين المعتزلة الذين يقدمون العقل ويرفعون من شأنه،[٥٣] وبين أهل السنة والجماعة الذين يقدمون النص على العقل، ولسنا بصدد مناقشة رأي المعتزلة وما أدى إليه بقدر الإشارة إلى وجود هذه الإشكالية في بدايات الفكر الديني الإسلامي قبل عصر التنوير والنهضة الأوروبي.[٥٤]

---

٥١ البهي، مصدر سابق، ص١٢٥.

٥٢ الصاوي، مصدر سابق، ص٣٢.

٥٣ والرفع من شأن العقل هنا ليس على إطلاق، إذ المعتزلة يؤسسون رأيهم في الإيجاب على رأيهم في التقدير، وللمسألة تفصيل انظر عبد المجيد النجار، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل** (فرجينا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، ١٩٩٣م).

٥٤ مع ملاحظة الأبعاد الكثيرة لهذا الموضوع فالمشهور عند الغرب أن ابن رشد الحفيد الفيلسوف، قد أخذ منهجه من اليهودي فايلو (Philo) الإسكندراني، بل ويذهبون إلى أبعد من هذا برد الفكر الاعتزالي إلى الفكر اليوناني الإغريقي وأنه نتيجة لترجمة كتب الفلسفة اليونانية.

أما النزعة العقلية الحديثة التي انطلقت من أوروبا وتميزت بصرامتها وتطرفها في التعامل مع الوحي[٥٥]، النزعة التي حمل لواءها رجال من أمثال ديكارت وسبينوزا وبرونو، ومن بعدهم فولتير وروسو ومونتسكيو، النزعة التي وصلت إلى اعتقاد بالقول "بالإنسان الفرد الصمد"، الإنسان صاحب العقل الذي يمكنه إدراك ومعرفة مستقبل الإنسانية، يستعمل التجربة ولا يؤمن إلا بالمحسوس المعقول فهو لا يحتاج بل سينبذ كل عبودية سواء للبشر أو حتى للإله[٥٦]، فقد أثّرت في الفكر الإسلامي الحديث ولعل محاولات محمد عبده في تأويله لبعض الغيبيات ـ كالملائكة ـ بما يقبله العقل كانت نتيجة لهذا التأثر بالنزعة العقلية. والفائدة من بيان العلاقة بين العقل والوحي لا تظهر في النقاش النظري، بل قيمة المبدأ تظهر في الأحكام العملية المتعلقة بالأفعال الحياتية.

ج ـ إصلاح النظام التشريعي الفقهي

لم يختلف الإصلاحيون المسلمون حول قضية التوحيد، وبقي الجميع يقرون بإسلامهم وعقيدتهم على خلاف الإصلاحيين اليهود الذين تنازل العديد منهم عن يهوديتهم واعتنقوا المسيحية[٥٧]، ولم تكن إشكالية العقل وعلاقته بالوحي نظرية بحتة منحصرة في التحسين والتقبيح العقليين بل تجاوز الأمر إلى إعادة النظر في الأحكام الشرعية العملية، وإذا استثنينا العبادات، فإن المعاملات بمفهومها الواسع كانت محل اجتهاد عند الإصلاحيين، على تفاوت فيما بينهم، وانطلقت هذه الدعوة من مجموعة شبهات انبنى عليها تفريعات كثيرة:

١. التفريق بين التشريع والفقه، واعتبار الثاني أقوال ظنية مرتبطة بملابسات الأمكنة والأزمنة التي ظهر بها ولها[٥٨]، فهو فقه ظروف له خصوصيته، ويدخل علم أصول الفقه ضمن هذه الأقوال.

٢. التفريق بين المتواتر والآحاد من السنة، وأن أحاديث الآحاد ليست حجة في باب العمل، ولا تفيد الحل والحرمة.

---

٥٥ هذا أمر غير مستغرب في بيئة لا يجمعها وحي متفق عليه، فاختلاف الأناجيل من جهة، وعدم وجود تشريع من جهة ثانية أدى إلى هذه النزعة.

٥٦ انظر البهي، مصدر سابق، ص٢٥٢.

٥٧ انظر عرفان عبد الحميد ، مصدر سابق، ص١٥٥.

٥٨ انظر الصاوي، مصدر سابق، ص١١.

٣. الالتفات إلى القرآن والقول بأن النص العام يتحول بمجرد أن يتعامل البشر معه ـ بدأً بالرسول ﷺ وانتهاءً بآحاد الناس ـ من منطوق إلى مفهوم ومن تنزيل إلى تأويل، فيصبح الحكم المستفاد منه حكماً بشرياً لا قداسة فيه.

٤. القول بالاجتهاد المطلق الواسع دون قيد أو شرط.

رُبطت هذه الشبهات بـ"ضرورة تغير الأحكام بتغير الزمان والمكان". ثم بدأ التطبيق الفعلي بالتفريعات التي انبنت على هذه القاعدة وتنوعت هذه التفريعات لتشمل معظم أحكام الشريعة الإسلامية.

ـ فالإسلام دين روحي لا علاقة له بالسياسة والدولة، والدين الإسلامي بريء من الخلافة التي تعارفها المسلمون، وقد تمثلت هذه الدعوى في كتاب "الإسلام وأصول الحكم" لعلي عبد الرازق، الذي صدر بعد سقوط الخلافة بعام واحد، أي في سنة ١٩٢٥م.[٥٩]

ـ مع تبدل المفاهيم والأعراف، فلا بد من إعادة النظر في تطبيق الحدود ـ كالقطع، والرجم والجلد باعتبارها عقوبات لا تتناسب مع القوانين الجنائية الحديثة.[٦٠]

ـ لا بد من التفريق بين ربا النسيئة المضاعف الذي نزل القرآن بتحريمه والفائدة البنكية، واعتبار القرض البنكي قرضاً إنتاجياً لا استهلاكياً، وبالتالي فالحرمة لا تلحقه.[٦١]

ـ الالتفات إلى المرأة وبيان حقوقها وإعادة النظر في ميراثها، وحق الرجل في التعدد وفي الطلاق، وبيان الحكمة من الحجاب وكيفيته. فالحجاب واختلاط المرأة

---

٥٩ وقد أثار كتاب الإسلام وأصول الحكم ضجة كبرى في أوساط المسلمين وقام البعض بالرد على ما جاء فيه من أمثال الشيخ محمد بخيت، وقد ذهب الجندي إلى أن الكتاب من تأليف اليهودي "مرجليوت" ثم وضع عليه اسم محمد علي عبد الرازق الأزهري لإضفاء الشرعية على الكتاب. انظر الجندي، إعادة النظر في كتابات العصريين، مصدر سابق، ص٥٥-٦٢. وقد قدم الكتاب ـ بلا قصد من مؤلفه ـ خدمة كبرى للإسلام إذ أثار العلماء المسلمين للكتابة في أصول الحكم وفي النظام السياسي الإسلامي، فكانت عشرات الكتب التي أظهرت حقيقة الإسلام السياسي، وحادثة هذا الكتاب تشبه حادثة الكتاب المنتحل الذي ظهر في حركة الإصلاح اليهودي وتسبب في فشل كبير للحركة، كما سبقت الإشارة ص٧.

٦٠ لا تقل هذه الدعوى عن سابقتها، انظر الصاوي، مصدر سابق، ص٦٤-٦٩. وهي نقطة أثارت ـ من حيث لم يقصد أصحابها ـ ردود فعل تعدت حيز الخطابات والعواطف وتمثلت بمجموعة مؤلفات أبانت خصائص النظام الجنائي في الإسلام بل وتفوقه على النظام الجنائي الوضعي، ومن هذه الكتب كتاب عبد القادر عودة "التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي"، وغيره من عشرات الكتب.

٦١ أثار هذه الشبهة الشيخ عبد العزيز جاويش، انظر كمال، مصدر سابق، ص٨١.

بالرجل في الحياة العامة مسألة يقدرها المجتمع بحسب ظروفه، ولكل مجتمع لباسه وقواعده، وما جاء في القرآن بشأن الحجاب فهو خاص بنسوة الرسول ﷺ . تزعّم هذه الدعوة قاسم أمين (١٢٨٢هـ/١٨٦٥م-١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) تلميذ محمد عبده، من خلال كتابه "تحرير المرأة" عام ١٨٩٩م، ثم في كتابه الثاني "المرأة الجديدة" عام ١٩٠٠م، والذي تبنى فيه تقليد المرأة المسلمة للمرأة الغربية.

ـ دعوة استبدال اللغة العربية الفصحى باللهجات المحلية القومية كالمصرية أو السورية.[٦٢]

بالمقارنة بين هذه الدعوات ودعوات الإصلاحيين اليهود والنصارى نجد نقاط تشابه كثيرة خاصة بين الإصلاحيين اليهود والإصلاحيين المسلمين، ولعل السبب يرجع إلى وجود تشريع مكتوب لكلتا الديانتين (الهالاخا والشريعة) على خلاف المسيحية. فاستبدال اللغة العبرية باللغات القومية المحلية (فرنسي، ألماني) واستبدال اللغة العربية باللهجات المحلية القومية يحمل المعنى نفسه، وتغيير الأحكام الشرعية المتوارثة (كالختان، ولبس غطاء الرأس، وعدم الاختلاط في الكُنيس...) التي نادى بها الإصلاحيون اليهود تحت حجة مسايرة تطورات الزمان والمكان، هي الحجة التي نادى بها التغربيون المسلمون لتغيير الأحكام الشرعية.

لمن الغلبة، ولماذا؟

بتصفح التاريخ نرى انحسار تيار التغيير والإصلاح، وقوة تيار العودة إلى التقاليد المتوارثة، ففي اليهودية اصطلح مؤرخو الفكر الديني اليهودي على هذه الظاهرة بالعودة (Return) أو التوبة (Conversion) والوعي الجمعي اليهودي في أغلبه يؤمن بأن التمسك بالتوراة هو الحافظ وهو الضمان لبقاء دولتهم (إسرائيل) التي تعد الدولة الأولى من حيث عدد المعاهد والكليات الدينية اللاهوتية. وفي المسيحية تشهد بعض الدول الأوروبية رجوعاً إلى أصول الدين المسيحي والمطالبة بالعودة إلى سيرة الحواريين وهي حركة أطلق عليها اسم (العنصرةCatholic Pentecostalism)، وتيار في البروتستانتية أطلق عليه (حركة توكيد الإنجيل Protestant biblical affirmation)، وتتعالى دعوات من هنا ومن هناك بالعودة إلى القيم والمبادئ المستقاة من الإنجيل. وفي الدول الإسلامية تثبت الدراسات والأبحاث المستفيضة عن تنامي

---

٦٢ انظر الجندي، **إعادة النظر في كتابات العصريين**، ص٩٩-١٠٥.

الصحوة الإسلامية والتي وصلت إلى تحذير الغرب من هذه الصحوة، واستخدام الوسائل كافة لعرقلة مسيرتها أو للحيلولة دون تزايدها.

بنظرة سريعة في إيران من دعوة التمدن والترقي إلى الحكم الديني المتشدد، وفي تركيا مثلاً بلد دعوة التمدن والترقي نرى وصول الأحزاب الإسلامية لسدة الحكم، وفي الدول العربية وصول الكثير من الأحزاب الإسلامية إلى المجالس النيابية، مما يدل على انحسار تيار التمدن والترقي، بل ورجوع كبار دعاة التغريب عن آرائهم وأفكارهم السابقة (كمنصور فهمي، وهيكل، وإسماعيل مظهر، وزكي مبارك، وطه حسين). وهكذا يبقى الفكر الديني عموماً مشدوداً إلى أبنيته التقليدية التي تعكس نظامها الثقافي وهويتها الاجتماعية.

نحاول معرفة أسباب انحسار التيار التغييري "الإصلاحي" وقوة تيار العودة إلى التقاليد المتوارثة وهي محاولة من الباحث لذكر مجموعة من الأسباب القابلة للنقاش:

أ- أن الاتجاهات الإصلاحية في الأديان الثلاثة في محاولتها للتغيير والتجديد لم تكن تواجه الدين بمعناه الاصطلاحي بل واجهت الدين بوصفها منظومة للمجتمعات تشكلت من قواعد ثلاث هي:

- وجهة نظر كلية عن الوجود والحياة والإنسان (Ethos).
- بنية أخلاقية موثقة (Ethics).
- مجموعة تقاليد اجتماعية تمنح الجماعة هوية اجتماعية وثقافية مستقلة عن باقي المجتمعات (Ethnos)، ولذلك لم يكن أمر تغيير الدين بأبعاده الثلاثة بالأمر السهل، وكان على الإصلاحيين أن يفهموا هذه الاعتبارات قبل المناداة بالتغيير أو الإصلاح. وعلى سبيل المثال فإن المجتمع اليهودي يعتبر الاحتفال بعيد الفصح مظهراً دينياً لا يصح التنازل عنه، حتى وإن شكّك بعض المؤرخين اليهود في صحة الأصل التاريخي له إلا أنه أصبح علامة وهوية اجتماعية يحرص عليها كل يهودي.

ب_ الميل الطبعي لدى أغلب المتدينين إلى روح المحافظة والسكون إلى الموروث والتحفظ والخوف والشك في الجديد.

ج_ افتقار دعاة الإصلاح - عموماً ـــ إلى الشرعية التاريخية، وهو أمر في غاية الأهمية في عرف المجتمعات التقليدية، فعلى الرغم من ادعاء أكثرهم البُعد التاريخي لأفكارهم ومحاولة ربط هذه الأفكار بالسلف الصالح، إلا أن تراخي وتساهل الدوائر المرتبطة بالإصلاحيين في بعض القضايا الشرعية يصيب دعوة المصلح بالفشل، ولعل خير مثال لهذا قاسم أمين وأفكاره في كتاب المرأة الجديدة.

د ـ علماء وأتباع التقاليد الشرعية المتوارثة والمعتمدة يظهرون للملأ على أنهم حماة العقيدة الصحيحة، والمدافعون عن جوهر الدين، فلهم وحدهم حق الفصل بين الدين والبدع المستحدثة.

هـ عادة ما يغير أصحاب التيار التقليدي بؤر اهتماماتهم، فبدلاً من الاستغراق في القضايا الكلامية النظرية يبدأ الاهتمام بقضايا الساعة ومتطلبات العصر.

الخاتمة

١ـ وجود علامات شَبَه في تطور الفكر الديني في الأديان الثلاثة.

٢ـ لكل حركة إصلاحية مصطلحات خاصة بها، وليس من الصواب نقل المصطلحات من حركة إصلاحية إلى أخرى وتنزيلها عليها، فالمفاهيم والمصطلحات إفرازات للدائرة التي أنتجتها.

٣ـ حركات الإصلاح في المسيحية ظهرت بسبب الانحرافات الكثيرة التي وقعت فيها الكنيسة واحتكارها لتفسير النصوص، ورغبة المسيحيين في الحصول على الحرية الدينية والتخلص من سلطة الكنيسة.

٤ـ تُعدّ حركة لوثر الإصلاحية من أشهر حركات الإصلاح في المسيحية، وقد استطاع الإصلاحيون بعد عناء شديد إقناع الجماهير بفساد الكنيسة، وقد ساهمت حركات الإصلاح في ظهور النزعة العقلية المجردة.

٥ـ حركات الإصلاح في اليهودية ظهرت لإصلاح اليهودية بمعنى الجمع بين تعاليم اليهودية والتطورات الحديثة، وأهم هذه الإصلاحات تمثلت في إعادة صياغة العقيدة اليهودية بما يتناسب مع العقل، واندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشوا فيها، والجمع بين الدراسات التقليدية للتلمود والدراسات الحديثة، وقد قام الإصلاحيون اليهود باقتراح تغيير بعض التشريعات إلا أنها وُوجهت بردود فعل أكّدت على ضرورة التثبت بالتعاليم الدينية لضمان استمرار الدين اليهودي.

٦ـ تعددت أسباب انبعاث حركات الإصلاح في الإسلام بين أسباب داخلية كحالة الضعف التي أصابت المسلمين، وأسباب خارجية كالتقدم والنهضة التي حصلت للأوروبيين.

٧ـ تبيّن من خلال مدارسة تاريخ حركات الإصلاح في الأديان الثلاثة أن تيار التغيير والإصلاح ينحسر وأن تيار العودة إلى الدين والتقاليد المتوارثة يزداد قوة.

٨ـ تبيّن أن من أهم أسباب انحسار تيار الإصلاح افتقار دعاة الإصلاح إلى الشرعية التاريخية، وتساهل بعض الدوائر المرتبطة بالإصلاحيين في بعض القضايا الشرعية.